

من شعرية الصمت إلى إنتاج المعنى: أحمد المجاطي نموذجاً

د/ رضوان كعية

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

مراكش آسفي، المغرب

تاريخ النشر: 2020-12-02

تاريخ الإرسال: 2020-09-11

ملخص

اتسمت القصيدة المعاصرة بأسلوبها الخاص في خلق المعاني بشكل مختلف عن التجارب السابقة، وأهم ما ميز هذا الأسلوب تكثيف المعنى بشكل يمنح الصمت حيزاً أكبر في السطر الشعري. وقد سعينا في هذا البحث قراءة شعرية الصمت عند أحمد المجاطي. وخلصنا إلى أن المجاطي وظف الصمت بشكل ضمن له شعرته الخلاقة على المستوى المعجمي وكذا الدلالي.

الكلمات المفتاح: القصيدة المعاصرة، إنتاج المعنى، تكثيف المعنى، الصمت، شعرية الصمت

Abstract :

Unlike previous experiences, contemporary poetry is characterized by its own style in creating meaning. What distinguishes this style is the condensation of meaning, in a way that makes the silence more dominant than the words of the poet. In this research we aim to present a reading of the poetic silence in AHMAD EL MAJJATI. And we concluded that EL MAJJATI used silence in its poetic sense both at the lexical and semantic levels.

Key words : Contemporary poetry, creating meaning, condensation of meaning, silence, poetics of silence

البحث:

تقديم

ارتبطت القصيدة المعاصرة بجنوحها إلى خلق المعاني على وجه مخصوص، قوامه "معنى خلاق توليدي، لا معنى وصفي سردي"¹. وبذلك نلاحظ أن المعاني المودعة في الشعر الرؤيوي تتسم بنوع من التكثيف وفق أسطر متفاوتة في الطول والقصر، مما يمنح القصيدة نوعاً من الغموض الذي لا يعني التنقيص من قيمتها، بقدر ما يفتح أمام القارئ باب التأويل والحفر في بياضات النص التي صمت عنها الشاعر، وبخاصة إذا استحضرننا عدم إمكانية إنكار التداخل بين اللغة والصمت في أي ملفوظ، لأن "الصمت واللغة ليسا ضدّين، فكلاهما نشيط ودال، والخطاب لا وجود له من دون علاقتهما المتبادلة"².

وعليه، راح الشاعر المعاصر يرسم عوالم قصيدته بشكل لا يمكن معه إنكار المعاني المتولدة من فترات الصمت في القصيدة، وهي فترات تتيح للقارئ التفكير والتأمل في كلام لا يمكن فهمه إلا بمساعدة معارفه المتعددة التي صار لزاماً عليه الإمام بما حتى يتمكن من فك شفرات النص، خصوصاً إذا استحضرننا أن حضور الشاعر الرؤيوي كإنسان لا يمكن حصره في كلامه فقط، بل في صمته أيضاً، لأن علاقة المتلقي بالعالم "لا تنسج فقط في استمرارية اللغة ولكن أيضاً في لحظات تعليقها، وفي التأمل والخلوة، أي اللحظات العديدة التي يسكت فيها الإنسان"³.

1 أدونيس علي أحمد سعيد، زمن الشعر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الخامسة، 1986، ص 9.

2 دافيد لوبروطون، الصمت لغة المعنى والوجود، ترجمة فريد الزاهي، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2019، ص 22.

3 للرجع نفسه، ص 29.

ولعل تحول الصمت أو ما يدل عليه في بعض القصائد المعاصرة إلى رمز شعري، له دلالة على أن المعنى في القصيدة لم يعد محصوراً في لحظات تعبير الشاعر بواسطة اللغة، وإنما في فترات الصمت التي قد تحمل في طياتها حكمة لا تتحملها الأساليب اللغوية مهما بلغت درجة شاعريتها.

وبناء على ما سبق، يسعى هذا البحث إلى الوقوف عند شعرية الصمت في قصيدة "كبوة الريح" للشاعر المغربي أحمد المجاطي.

1 _ شعرية الصمت في عتبات قصيدة "كبوة الريح"

أ _ العنوان

يشكل عنوان القصيدة "كبوة الريح" أحد مظاهر الصمت في النص الشعري؛ حيث جمع بين ما لا يجتمع في الحقيقة (كبوة) و(الريح)، ولا في القصائد التقليدية على سبيل الاستعارة، مما يجعلنا أمام إبداع تصويري تفرد به الشاعر المجاطي، دون أن يفصح من خلاله عن المعاني الثاوية في القصيدة إلا من خلال التلميح وشد انتباه القارئ والدفع به إلى ولوج عالم النص الشعري. وبذلك فإن العنوان لن يَمَكِّن القارئ سوى من صياغة فرضيات تبقى رهينة بالتأكد من مدى صحتها بعد قراءة القصيدة، من قبيل: تصوير النص لموقفه تجاه حال الواقع العربي _ الجمود الذي يعاني منه الإنسان العربي بعد توالي الأزمات عليه _ التحول الذي طرأ على العالم العربي بعد فترات الخصب التي عاشها...

ب _ المطلع

افتتح الشاعر قصيدته بقوله:

"على المحيط يستريح الثلج

والسكوت

تسمر الموج على الرمال

والريح زورق

بلا رجال وبعض مجداف

وعنكبوت"⁴

يقدم هذا المطلع صورة تسودها بعض مظاهر الصمت، حيث السكون وسكوت المحيط وتوقف الأمواج ورسوّ زورق الريح بسبب غياب من يتولى القيادة، وعدم توفر ما يكفي من المجاديف، مما جعل العنكبوت تنسج خيوطها على الزورق بعدما طالت حالة السكون هذه.

ج _ هيكل النص العام

يستوقفنا في الهيكل العام للنص شكله المختلف عن القصيدة التقليدية؛ إذ نلاحظ تفاوتاً بين الأسطر الشعرية في الطول والقصر، مع هيمنة واضحة للبياض/ الصمت في كل سطر، "فبعد كل بيت تعود القصيدة إلى أول السطر، وكل بيت ينفصل عن الذي بعده ببياض يمتد من آخر حرف إلى نهاية الصفحة"⁵. وهذا يدفعنا إلى مساءلة المعاني التي يحملها ذلك البياض/ الصمت، وما هي المحددات التي تجعله متفاوتاً من

4 أحمد المحاطي، الفروسيّة، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الإبداع 2، مطبعة النجّاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987، ص 21.

5 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الطبعة 2، 2014، ص 55.

سطر شعري إلى آخر؟ وما هي المعاني التي تحملها بياضات النص المنتشرة فيه بشكل ملفت؟

2_ شعرية الصمت في "كبوة الريح"

بتأملنا للقصيدة موضوع البحث، نلاحظ بالإضافة إلى هيمنة الصمت على الأسطر الشعرية، حضوراً بارزاً لحقل معجمي يمتح من معاني السكون، إلى درجة يمكن معها اعتبار تيمة الصمت بؤرة تنصهر فيها مختلف معاني القصيدة. وعليه يمكن الوقوف في سياق الحديث عن شعرية الصمت في القصيدة على مستويين أساسيين:

ـ **المستوى المعجمي:** وسنركز فيه على الأبعاد الرمزية لحقل الصمت.

ـ **المستوى الدلالي:** وسنخصصه للحديث عن المعاني التي يحملها صمت الشاعر وعدم بوحه بشكل شيء.

أ ـ المستوى المعجمي

على عادة شعراء الرؤيا، اختار أحمد الجحاطي معجماً يمتح من كلمات متداولة لا يحتاج شرحها الاستعانة بالمعجم، لكن مع ذلك نجد أن توليفه بين هذه الكلمات يطرح نوعاً من الغموض ويفتح باب التأويل؛ حيث لا نكاد نجد في السطر الشعري إلا ومضة قد يكتمل معها المعنى وقد لا يكتمل إلا مع السطر أو الأسطر الموالية.

ويبقى "الصمت" أهم حقل معجمي في القصيدة موضوع الدراسة؛ حيث نعثر على مرادفه في السطر الثاني (السكوت)، وعلى تجلياته في باقي الأسطر من قبيل: الثلج، تسمر، الموت، الطلوع، أشلاء، السكون، الظلمة، الحجارة... وهذا يدفعنا إلى

صياغة فرضيات لعل أبرزها أن الشاعر يلمح للقارئ أن الصمت ليس انعداماً للمعنى، وهذا ما تؤكدُه عدة أسطر في القصيدة:

"يا سارق الشعلة

إن الصخب في السكون"⁶

و قوله:

"فارجع بها شراره

تنفض توق الريح

من سلاسل السكوت"⁷

الصمت إذن ليس فراغاً من المعنى، وإنما هو ذلك "النفس القائم بين الكلمات، والانطواء القصير الذي يسمح بمرور المعنى، وتبادل النظرات والعواطف، والقياس السريع للأقوال التي تتسارع على الشفاه أو صدى تلقّيها"⁸.

لقد سعى الشاعر في هذه القصيدة إلى إعطاء الصمت بعداً شعرياً يتجلى في شحنه بالمعاني التي فقدها عند عامة الناس، ولذلك نلاحظ كيف جمع بين المتناقضات فجعل الصخب في السكون، وقطف زهور النور عبر الظلمة الحرون...

6 أحمد المحاطي، الفروسية، ص 23.

7 المرجع نفسه، ص 24.

8 دافيد لوبروطون، الصمت لغة المعنى والوجود، ص 30.

وعليه فقد آمن الشاعر في قصيدة "كبوة الريح" بأن الصمت يمكن أن يغير الإنسان والواقع، مادامت الكلمة عاجزة عن ذلك، وهذا ما يفصح عنه حينما قال:

"نحن انتجعنا الصمت

في المغاره

لأن الملح

لا تغسله العبارة"⁹

والحل في نظر الشاعر هو العمل الجاد في صمت، مثل ما فعله برومثيروس حين سرق نار الحكمة فخدع بذلك زيوس وأنقذ البشر. يقول المجاطي:

"فانزل معي للبحر

تحت الموج والحجاره

لا بد أن شعله

تغوص في القاراه

فارجع بها شراره

تنفض توق الريح

من سلاسل السكوت

9 أحمد المجاطي، الفروسية، ص24.

تعلم الإنسان

أن يموت¹⁰

الصمت إذن، وكذا السكوت والموت وغيرها، هي كلمات اعتاد عامة الناس أن يمنحوها كل معاني اليأس، لكن المخاطي في قصيدته "كبوة الريح" أسبغ عليها صفات الأمل والقدرة على انتشال الواقع العربي من الجمود، إيماناً منه أننا بالصمت نحيا وبالكلام نموت.

ب _ المستوى الدلالي

سبقت الإشارة إلى أن الصمت يطغى على القصيدة من حيث الهيكل العام، ومعنى هذا أن المخاطي لا يصرح بكل شيء في السطر الشعري وإنما يترك مجالاً واسعاً للمتلقي من أجل التأمل في الومضات الشعرية التي يلمح من خلالها إلى تصوير الواقع وفق مشروعه الرؤيوي. ولذلك نلاحظ أن شخصية الشاعر لا تتكلم إلا عن طريق التعبير بالغاز أو بإيراد حكمة، وهي بذلك شبيهة إلى حد كبير بشخصية المتصوفة الذين يصل بهم عمق تجربتهم إلى درجة تعجز معها اللغة عن إيصال المعنى، ومن ثم فهم يشكون دائماً من ضيق العبارة. "وكلما زادت التجربة لديهم عمقا ازدادت شفافية ورقة وتمنعا عن أن تسجن في القوالب اللغوية"¹¹. ومما يؤكد هذا الطرح في شعر المخاطي ما لمح إليه في قصيدة "السقوط":

"تسعفني الكأس ولا

10 أحمد المخاطي، الفروسية، ص 24.

11 ينظر: حلول قاسمي، الكتابة والنص الغائب سؤال المرحح في روايات أحمد التوفيق، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2015، ص 104.

تسعفني العبارة¹²

لقد كان المجاطي في سائر أشعاره متأملاً أكثر من متكلم، ولذلك فلا غرابة في أن يهيمن الصمت على قصائد ديوانه "الفروسية". وتتجلى شخصية الشاعر المتأمل للعالم في قصيدة "كبوة الريح" حينما صوّر في المقطع الأول من قصيدته الحالة المزرية التي يعرفها الواقع، حيث السكوت وعدم القدرة على الحركة. بيد أن هذا الواقع قابل للتغيير، وهذا ما لمح إليه الشاعر دون تصريح في قوله:

"من يشعل الفرحة

في مدامعي

من يوقظ العملاق

من يموت"¹³

فإشعال الفرحة وإيقاظ العملاق مؤشران على إمكانية انتشار الواقع من حالة يسودها اليأس إلى إعادة بعث الأمل من جديد. ولن يتأتى هذا إلا عن طريق "الموت" الذي قد يعني في هذا الموطن "الفداء" من أجل الآخرين.

بيد أن "الموت" ليس هو المخلص دائماً، فهناك نوع آخر منه لا يزيد الوضع إلا تأزماً، وهو الذي يشير إليه الشاعر في مطلع المقطع الثاني:

"رائحة الموت على الحديقة

12 أحمد المجاطي، الفروسية، ص 64.

13 المرجع نفسه، ص 21.

تهزأ بالفصول

وأنت يا صديقه

حشرجة

ودمعة بتول

ووقع أقدام

على الطلول

تبحث عن

حقيقه

عن خنجر

عن ساعد يصول"14

مما دفع الشاعر إلى وصف حال "صديقة" ذات معنى رمزي، ربما تدل على الواقع العربي الذي ينتقده الشاعر، إنها "صديقة" تحمل كل صفات الطهر والبراءة، تنتظر من يخلصها من براثن القهر التي تعيش فيها. هذا المخلص لن يكون إلا أحد المخلصين الشجعان أمثال الشاعر ومن تربي على التوق إلى دقة الطبول في ساحات المعارك ومواصلة النزال حتى الانتصار أو الموت. يقول الشاعر:

14 أحمد الجاهلي، الفروسية، ص 21 _ 22.

"وكان ريش النسر

في جراحنا العميقه

فما

وتوقا ظامنا

لدقة الطبول

لعصفة من كرم الريح

تبيل ريقه

_ وحلبة النزال؟

_ أيُّ غيمة رقيقه

تحوم عند كبوة الخيول!

عودوا بأشلائي،

دمي لم يبتسر طريقه"¹⁵

يبدو في هذا المقطع أيضا هيمنة الصمت وذلك من خلال عدم تصريح الشاعر بكل المعاني؛ إذ يقتصر فقط على بعض التلميحات التي تدفع بالمتلقي إلى إعادة القراءة عدة مرات من أجل ملء فراغ الكلمات الصماء وإكمال المعنى الكامن بين

15 أحمد المصطفى، الفروسية، ص 22 _ 23.

السطور. ولعل السطرين الأخيرين في هذا المقطع هما خير مثال عن جنوح الشاعر إلى التعبير بما قل ودل، سالكا أسلوب الحكمة في تصويره للتغيير الذي ينشده، والذي يراه رهينا بعدم التسرع، ف:

"من مد للفجر يده

يستعجل الوصول"¹⁶

أما في المقطع الأخير، فنلاحظ هيمنة الجمل المتصدرة بأفعال الأمر:

— "فاقطف زهور النور"¹⁷

— "فانزل معي للبحر"¹⁸

— "فارجع بها شراره"¹⁹

وهي عبارات أوردها الشاعر بشكل موجز ينشد من ورائها إعادة بعث الأمل في الواقع العربي. ولعل اختيار الشاعر لهذا الأسلوب راجع إلى إيمانه بفاعلية الصمت وقدرته على التغيير وإخراج الشعلة التي تغوص في قرارة البحر، شريطة استعداد الإنسان أن يموت فداءً لأخيه الإنسان.

16 المرجع نفسه، ص 23.

17 المرجع نفسه، ص 24.

18 أحمد المجاطي، الفروسية، ص 24.

19 المرجع نفسه.

خاتمة

نخلص مما سبق إلى مجموعة من النتائج نوردتها على الشكل الآتي:

1 _ شكل الصمت في قصيدة "كبوة الريح" تيمة أساسية ضمنت للنص شعريته، وكشفت أحد وجوه المشروع الرؤيوي للشاعر أحمد المجاطي.

2 _ رسمت القصيدة موضوع البحث للصمت صورة خلاقية تجلت على مستويين اثنين:

_ على المستوى المعجمي: تجاوز الشاعر الصورة العادية التي منحها عامة الناس للصمت، فأسبغ عليه صفات إعادة بعث الأمل ونشيدان التغيير.

_ على المستوى الدلالي: اعتمد المجاطي على الصمت في تبليغ المعاني، حيث كان لا يضمن أسطر القصيدة إلا ومضات توحى إلى المعنى ولا تكشفه.

3 _ يمكن اعتبار الشاعر في قصيدة "كبوة الريح" شخصية متصوفة تجنح إلى الصمت من أجل التعبير، وهذا يكشف عمق تجربته الرؤيوية واتساعها بشكل تضيق معه العبارات في التعبير.